

## نحو مدرسة عربية للصدمة النفسية... النايلسي وعلم نفس الصدمة اللبناني

د. وليد خالد محمد الحميد\* - الطب النفسي (العراق/ الامارات العربية المتحدة)

[wabdulhamid@aol.com](mailto:wabdulhamid@aol.com)

أن أجزاء عديدة من العالم العربي بدأت تنحدر إلى حرب أهلية بشكل أو آخر في أعقاب حرب العراق و ما دعي بالربيع العربي. ولإن لهذه الصراعات عواقب هائلة على الصحة النفسية للسكان في هذه الأجزاء، فإنه من المهم بمكان استنباط دروس الصحة النفسية من واحدة من أطول الحروب الأهلية المبكرة في الشرق الأوسط والتي هي الحرب الأهلية في لبنان. من المعروف عالمياً وعربياً

بأن السينما اللبنانية عرفت بسينما الصدمة لأنها أصبحت أداة هامة جداً في تسجيل الأحداث الصادمة ليس فقط للحرب نفسها، بل أيضاً لنتائج تلك الحرب على الصحة العقلية. ولقد تناولت الكاتبة لنا خطاب هذا التسجيل في كتابها (السينما اللبنانية: تصوير الحرب الأهلية وما بعدها) والتي حاولت خلال هذا الكتاب تحليل الطريقة التي أعادت بها السينما اللبنانية (والتي وصفتها بسينما الصدمة) ترميز الذاكرة النفسية للحرب وكيف يمكن أن تكون أداة هامة في توضيح العواقب الحالية للصراعات الأهلية الأخيرة الجارية ومنع الصراعات المستقبلية (Khatib, 2008).

ويصف مصطلح "الحرب الأهلية في لبنان" سلسلة من الصراعات التي اجتاحت مناطق عديدة من لبنان بين عامي 1975 و1990. على الرغم من أن الكثيرين يعتقدون أن هذه الحرب كانت صراعاً دولياً وإقليمياً خيض على الأراضي اللبنانية. شيء آخر مهم هو أن الشخصيات السياسية والعرقية والدينية والطائفية اللبنانية تصدرت واستغلت هذه الحرب وأنشأت الميليشيات استغلت هذه الحرب ولا زالت تهيمن على الواقع السياسي الطائفي هناك (Haugbolle, 2010). وقد أدى هذا الصراع الذي دام 16 عاماً إلى تكاليف اقتصادية واجتماعية وسيكولوجية ضخمة. وتشير التقديرات إلى أن تلك الحرب دمرت البنى التحتية في لبنان وتسببت في تشريد 750 000 مواطن ودمرت العديد من المناطق والبلدات والقرى وتسببت في كوارث بيئية كبيرة. وقد قدرت الخسائر البشرية بـ170.000 قتيل و 10,000 معوق (Dagher, 1995).

وفي كتابه، الصدمة النفسية أشكالها العيادية وابعادها الوجودية، استخدم الأستاذ الراحل عدنان حب الله المحلل النفسي اللبناني الشهير الذي عاش في بيروت خلال الحرب الأهلية تجربته السريرية خلال الحرب شارحاً بأن تلك الصدمة لا يمكن فصلها عن سياقها الاجتماعي والسياسي والثقافي. بما أن هذا سياق قد شكّل الطريقة التي ظهرت بهاتلك الصدمات سريياً (عدنان حب الله، 1998)

أجزاء عديدة من العالم العربي بدأت تنحدر إلى حرب أهلية بشكل أو آخر في أعقاب حرب العراق و ما دعي بالربيع العربي.

من المهم بمكان استنباط دروس الصحة النفسية من واحدة من أطول الحروب الأهلية المبكرة في الشرق الأوسط والتي هي الحرب الأهلية في لبنان

أدى هذا الصراع الذي دام 16 عاماً إلى تكاليف اقتصادية واجتماعية وسيكولوجية ضخمة. وتشير التقديرات إلى أن تلك الحرب دمرت البنى التحتية في لبنان وتسببت في تشريد 750 000 مواطن ودمرت العديد من المناطق والبلدات والقرى وتسببت في كوارث بيئية كبيرة.

ومن دراسة وبائية لمنظمة الصحة العالمية، قام كرم وزملاؤه في العام 2008 بدراسة تستند إلى هذه الدراسة والمسح الميداني التي اجزته منظمة الصحة العالمية لعينة ممثلة من اللبنانيين، أظهرت هذه الدراسة أن ربع إلى ثلث سكان لبنان يعانون من شكل من أشكال الاضطرابات النفسية. ووجدوا أيضا أن الأحداث الصدمية المرتبطة بالحرب الأهلية في لبنان أظهرت وجود علاقة هامة احصائيا مع مشاكل نفسانية مثل؛ اضطرابات المزاج والقلق وكذلك اضطرابات السيطرة على الدافع. ووجدت الدراسة أن خطر ظهور هذه الاضطرابات التي زادت خلال الحرب وهي اضطرابات المزاج واضطرابات السيطرة على الدافع كمشاكل نفسية استمرت في الزيادة بعد فترة طويلة من نهاية الحرب. وعلى الرغم من هذه النتائج فإن المفاجئة التي ظهرت بها هذه الدراسة هو كون معدل الاضطراب الكربي التالي للصدمة لمدى الحياة كان منخفضاً الى نحو نصف ذلك الموجود في الولايات المتحدة (Karam et al, 2008). وعندما سألت البروفسور كرم في مؤتمر عقد في عمان قبل سنتين عن سبب ذلك قال انه يجهل السبب ولكني وبأعادة قراءة كتاب الدكتور محمد أحمد النابلسي: الصدمة النفسية - علم نفس الحروب و الكوارث، اكتشفت ان الدكتور محمد رحمه الله كان قد حلل ذلك تحليلا دقيقا وصائبا عندما كتب ما أقتبسه: "أنا وفي غياب المدرسة العربية للطب النفسي نجد اختصاصينا مدفوعين الى اعتماد أحد التصنيفات العالمية المطروحة. ومن بينها تصنيف الجمعية الامريكية السابق الذكر (DSMIII-R). إلا أن تجربتنا في المجتمع اللبناني تدفعنا الى توجيه عدة انتقادات الى هذا التصنيف..... وفيما يلي نعرض باختصار لهذه الانتقادات (وقد اقتبسنا هنا أول أهم اثنين من 7 انتقادات):

1. يعتمد هذا التصنيف الى سحب عارض الشعور بالذنب لدى الناجين من الكارثة كما يعتمد الى تجاهله بصورة كاملة. علما بأننا نلاحظ هذا الشعور بالذنب لدى الغالبية العظمى من الذين ينجون من الكوارث. ويكفينا الإشارة هنا الى ان هذا الشعور بالذنب قد تبدي لدى بعض الأجانب (لم يزورا لبنان قط) لمجرد رؤيتهم لأحد الأفلام الذي يعرض كارثة انفجار سيارة مفخخة. أضف الى ذلك أن طبيعة المشاركة الإنسانية لدى الشرقيين تجعلنا عاجزين عن تجاهل هذا العارض. ونؤكد من خلال تجربتنا أننا كنا غالبا مضطرين ومدفوعين الى معالجة هذا العارض (محو شعور الذنب) لدى الناجين من الكوارث- المصابين بالعصاب الصدمي. بل نضيف أن هذا الشعور بالذنب كان غالبا مترافقا ب(الحزن غير المعبر عنه) مما يفتح الأبواب امام المرض السيكوسوماتي (الجسمنة).

2. إن التصنيف الأمريكي يعتمد مبدأ (الصدمة الوحيدة) وهذا لا يتلائم مطلقا مع ظروف تجربتنا. ففي غالبية الحالات يكون المريض قد تعرض لصدمة متكررة (لاحظ طول الفترة الزمنية للحرب اللبنانية) ومتنوعة (انفجارات، معارك أسر..... الخ) وان كانت آثارها مختلفة الحدة. وفي هذه الحالات نجد أنفسنا عاجزون عن تطبيق التصنيف الأمريكي. فهذا التصنيف يقسم الاعراض الصدمية الى حادة و متأخرة. وفي حال المريض اللبناني المتعرض لصدمة متكررة من أين لنا أن نحدد ما اذا كانت العوارض المتبدية على المريض حادة (بسبب الصدمة الأخيرة) أم هي متأخرة (ناجمة عن إحدى الصدمات الاقدم)؟ (محمد أحمد النابلسي، 1991، ص 51-52)

ولقد حدد الدكتور محمد النابلسي رحمه الله هنا ما قد يعكسه التحيز الثقافي لأساليب المسح الوبائي الطبي النفسي المستعملة والمستندة الى اساليب تصنيف الامراض النفسية المشتقة من تجارب ثقافية واجتماعية مختلف والتي أطلق عليها كلينمانمشكلة: مغالطة الفئة (Category Fallacy) إن نحن لم

أن الأحداث الصدمية المرتبطة بالحرب الأهلية في لبنان أظهرت وجود علاقة هامة احصائيا مع مشاكل نفسانية مثل؛ اضطرابات المزاج والقلق وكذلك اضطرابات السيطرة على الدافع

أننا وفي غياب المدرسة العربية للطب النفسي نجد اختصاصينا مدفوعين الى اعتماد أحد التصنيفات العالمية المطروحة.

إلا أن تجربتنا في المجتمع اللبناني تدفعنا الى توجيه عدة انتقادات الى هذا التصنيف.....

يعتمد هذا التصنيف الى سحب عارض الشعور بالذنب لدى الناجين من الكارثة كما يعتمد الى تجاهله بصورة كاملة. علما بأننا نلاحظ هذا الشعور بالذنب لدى الغالبية العظمى من الذين ينجون من الكوارث.

نضع الخصائص الثقافية للأعراض المختلفة الخاصة لكل من الاضطرابات النفسية المختلفة في المجتمعات المختلفة (Kleinman, 1977).

وفي الكارثة التي أعقبت الحرب اللبنانية والتي تحدث عنها الدكتور محمد أحمد النابلسي في العدد الخاص من مجلة شبكة العلوم النفسية العربية العدد الثاني عشر للعام 2003 هي احتلال العراق والذي قال عنه الدكتور محمد أحمد النابلسي في كلمته الافتتاحية لهذا العدد تحت عنوان وباء الإحباط العربي عبر الصدمات المتتالية فيها عما تحدته القوات الأمريكية من كوارث و فضائع في الفلوجة وغيرها من مدن العراق وفضائع الحرب الطائفية في العراق وتتبا بتداعيات ذلك على المواطن العربي متنبأ بالكوارث القادمة التي حصلت بعد مادعي بالربيع العربي. ومما يستحق الذكر ان دراستين ظهرتتا بعد الاحتلال الأمريكي البريطاني الاولي عام 2010 وأثبتت أن معدل الإصابة بالاضطراب الكربي التالي للصدمة في العراق هو نصف ذلك المسجل في لبنان (Sadik,2010)، وكذلك دراسة أجريت في الأعوام 2015 و 2016، في اوج الحرب ضد الاحتلال الإرهابي لداعش لأجزاء كبيرة من العراق، اثبتت أن الانتحار في العراق اقل من المعدلات العالمية مع اننا لو فقط حسبنا العمليات الإرهابية الانتحارية لداعش لفاقت كل الإحصاءات العالمية للانتحار. ومن الجدير بالذكر ان بعض مؤلفي هاتين الدراستين كانوا من الذين ايدوا وشاركوا في احتلال العراق الأمريكي البريطاني عام 2003 ونالوا مناصب والقباب اكااديمية بريطانية لقاء تأييدهم لهذا الاحتلال وكأنهم يقولون في هاتين الدراستين شكرا للاحتلال الذي حسن الصحة النفسية في العراق بما يناقض كل الحقائق الميدانية والمنطقية.

سيناريو الحرب الطائفية اللبنانية قد كررت في العراق من قبل حكومة الاحتلال بحذافيرها. وإذا كان المجتمع اللبناني قد وصف بأنه "مجتمع ثقافة الذاكرة" لأنه أنتج ذكرى تاريخية تشير إلى التعددية التي هي أكثر ملاءمة للسياق اللبناني. ومن الواضح أن الطائفية كانت العامل الرئيسي "الغيل الذي هو في داخل الغرفة" الذي كانت موجودة منذ إنشاء لبنان الحديث في عام 1943 وكانت هذه الطائفية هي التي كانت وراء الحرب الاهلية ونتائجها الحالية (Houballah, 1998). وعلى الرغم من أن الطائفية كانت سبباً في الحرب، فإن الحرب بدورها قد تسببت في المزيد من التجزؤ في الحياة السياسية والاجتماعية اللبنانية وهذا ما حصل في العراق كذلك. وقد أوضح ذلك بيان طلال سلمان رئيس تحرير صحيفة السفير (الاقتباس هو نقلاً عن: Haugbolle, 2010): "صحيح أن جريدة السفير كانت منحازة أثناء الحرب، وذلك سببه أنه لم يكن هناك مجال للموضوعية.... من السهل اتهام الصحافة. ولكن لا أحد كان يعتقد أن الحرب ستستمر حتى التسعينات، وإذا كان يمكن قول أي شيء، فهو أننا ننتقل إلى الرؤية والتحليل لقضية الحرب. عندما ظللنا كلنا نعتقد أن الحرب لن تؤدي إلى مذبحه.

ولقد أدت الحرب الطائفية في كل من لبنان والعراق إلى إعادة توزيع الطوائف والعرقية بطريقتة تجعلها غير قادرة على إعادة الاندماج. لقد خلقت الحرب إشارات طائفية مختلفة للإحياء والمناطق لإحياء ذكرى الموتى للطوائف المختلفة في بيروت وبغداد والمدن الكبرى والبلدات والقرى (Haugbolle, 2010)، تم العفو عن كل الجرائم التي حصلت في الحالتين دون أن تقال الحقيقة من خلال محاكمات كما حدث في الجنوب أفريقيا، وهذا، كما يعتقد هو غبول، أبقى الذاكرة تكون داخل الفضاء الطائفي بدلا من أن تكون في الفضاء الوطني، وأن ما سيجعل من الصعب على لبنان أن يطوي صفحة الحرب الأهلية والمضي قدما (Haugbolle, 2010) وقد جعلت السياسة الرسمية المتمثلة في "العفو وفقدان

وفي حال المريض اللبناني المتعرض لصدمة متكررة من أين لنا أن نحدد ما اذا كانت العوارض المتبدية على المريض حادة (بسبب الصدمة الأخيرة) أم هي متأخرة (ناجمة عن إحدى الصدمات الأقدم)

ان دراستين ظهرتتا بعد الاحتلال الأمريكي البريطاني الاولي عام 2010 وأثبتت أن معدل الإصابة بالاضطراب الكربي التالي للصدمة في العراق هو نصف ذلك المسجل في لبنان

أن الانتحار في العراق اقل من المعدلات العالمية مع اننا لو فقط حسبنا العمليات الإرهابية الانتحارية لداعش لفاقت كل الإحصاءات العالمية للانتحار.

على الرغم من أن الطائفية كانت سبباً في الحرب، فإن الحرب بدورها قد تسببت في المزيد من التجزؤ في الحياة السياسية والاجتماعية اللبنانية وهذا ما حصل في العراق كذلك

الذاكرة "من الصعب على الناس طي صفحة الحرب الأهلية، بل على العكس من ذلك تركت ملف الحرب الأهلية مفتوحاً ومستعد للانفجار في أي لحظة. وقد خلق كل هذا شعور بعدم الانتماء الوطني أظهرته أغنية تذكر عدم العودة في إشارة إلى أغنية للمطرب اللبناني الشهير زياد الرحباني التي استعملت من قبل لجنة عائلات المختطفين والمختفين. ودعت الحملة إلى إعلان يوم 13 نيسان/أبريل "يوماً وطنياً للذكرى" لاستخلاص الدروس من الحرب الأهلية. أما في العراق فإن الطائفية أصبحت بفضل الاحتلال وادواته: حقيقة سياسية وإدارية تكرر وتدعم من قبل دول مجاورة.

لحل هذه المعضلة يجب أن تستخدم تجربة جنوب أفريقيا في محاكمات لجنة المصالحة والحقيقة (والتي كان فيها أشهر أطباء الصدمة النفسية في العالم البروفيسور باسيل فان دير كولك) في كل من لبنان والعراق والأجزاء المتصارعة الأخرى من وطننا العربي بما يعمل على تنكير الجمهور بالحرب الأهلية بطريقة مهمة لصحة هذه البلدان النفسية ولعلاج العلل النفسية التي أنشأتها تلك الحرب بطريقة جماعية (Haugbolle, 2010). بدأ الكثيرون يصفون "ترسيخ الطائفية من الناحية المرضية بأنها مرض لبنان الذي يحتاج إلى علاج. وسيحتاج ذلك إلى تحول في الحوار السياسي عن طريق تحويل تركيز المعاناة العامة من الكلام عن "الإرهاب" الذي يتهم كل طرف الطرف الآخر به إلى مصطلح "الصدمة النفسية" (Haugbolle, 2010). وقد ساعدت المظاهرات العامة والاحتجاجات الجماهيرية في كل من لبنان والعراق إلى إنشاء تحالف "عبر طائفي" يمكن أن يؤسس لحقيقة وطنية جديدة (Haugbolle, 2010) ويكون أساساً للبناء الوطني. ولكن دور بعض الدول الإقليمية يبقى عائقاً في تمكين مثل هذه المصالحة.

انني في غاية السعادة والفخر أن يطلب مني الاستاذ والزميل والصدوق الدكتور جمال التركي رئيس الشبكة تحرير هذا الملف المهم. ويسعدني أكثر أن أقدم لكم عصارة التجربة الصدمية الأكبر في حاضرنا العربي المتمثلة بالأزمة السورية ممثلة بخليط من اساتذة سوريين فطاحل في بحث ومعالجة الصدمة النفسية أمثال الدكتورة مارسلينا شعبان من دمشق والدكتور مأمون مبيض من قطر والدكتور خالد سلطان من المملكة المتحدة مع باحثين شباب يشتغلون مع اللاجئين السوريين علمتهم التجربة المريرة أهمية البحث العلمي ممثلين بالأستاذة هدى عبد العال/ ماجستير في علم النفس (ماليزيا/ سوريا) والأستاذة عزيزة محمود علي التي تشتغل مع اللاجئين السوريين في إسطنبول. أرجو أن يكون هذا الملف نقطة البداية لانطلاق مدرسة عربية للصدمة النفسية طالما حلم واسس لها المرحوم الدكتور محمد أحمد النابلسي وكذلك المرحوم الدكتور عدنان حب الله.

#### المصادر

عدنان حب الله (1998) الصدمة النفسية أشكالها العيادية و أبعادها الوجودية - بيروت: دار الفارابي للنشر والتوزيع.  
محمد أحمد النابلسي (1991) الصدمة النفسية - علم نفس الحروب و الكوارث - مجموعة من الباحثين. بيروت: دار النهضة العربية.

#### References:

Abbasi, M.J., Alhemiaryb,N, Abdul Razaqc, E., Naoshd, S., Applebye, L. (2018) The Iraqi national study of suicide: Report on suicide data in Iraq in 2015 and 2016. Journal of Affective Disorders 229 (2018) 56-62

ولقد أحدثت الحرب الطائفية في كل من لبنان والعراق إلى إعادة توزيع الطوائف والعرقية بطريقة تجعلها غير قادرة على إعادة الاندماج

لقد خلقت الحرب إشارات طائفية مختلفة للأحياء والمناطق لإحياء ذكرى الموتى للطوائف المختلفة في بيروت وبغداد والمدن الصبري والبلدات والقري

في العراق فإن الطائفية أصبحت بفضل الاحتلال وادواته: حقيقة سياسية وإدارية تكرر وتدعم من قبل دول مجاورة.

بدأ الكثيرون يصفون 'ترسيخ الطائفية من الناحية المرضية بأنها مرض لبنان الذي يحتاج إلى علاج.

سيحتاج ذلك إلى تحول في الحوار السياسي عن طريق تحويل تركيز المعاناة العامة من الكلام عن "الإرهاب" الذي يتهم كل طرف الطرف الآخر به إلى مصطلح "الصدمة النفسية"

Dagher, Fiollet (1995) Sectarianism and Human rights. Cairo: Cairo Centre for Human Rights.

Haugbolle, Sune (2010) War Memory in Lebanon. Cambridge: Cambridge University Press.

Houballah, Adnan (1998) Destin Du Traumatisme, Comment faire son deuil. Paris: Hachette Littératures.

Karam, E., Mneimneh, Z., Karam, A. Fayyad, J., Nasses, S., Dimassi, H., et al (2008) Mental Disorders and War in Lebanon. In R. Kessler, J., T. Üstün (Eds.), The WHO World Mental Health Surveys: Global perspectives on the epidemiology of mental disorders (pp. 265-278) Cambridge: Cambridge University Press.

Khatib, Lina (2008) Lebanese Cinema, Imagining the Civil War and Beyond. London: I.B.Tauris.

Kleinman AM. Depression, somatization and the "new cross-cultural psychiatry". Social Science & Medicine. 1977; 11(1):3-9.

Sadik S, Bradley M, Al-Hasoon S, Jenkins R. (2010) Public Perception of Mental Health in Iraq. International Journal of Mental Health. 2010, 4: 26.

\*(MBCbB, MRCPsych, PhD)

استشاري ومشرّف مرخص من قبل الرابطة الأوروبية لعلاج الصدمة النفسية إبطال التحسس وإعادة المعالجة بحركات العين (EuropeEMDR)'  
الطبيب الاستشاري و المدير الطبي لمركز البرايوريلولوبلينك،  
مدينة دبي الطبية، دبي، الامارات العربية المتحدة.

انني في غاية السعادة  
والفخر أن يطلب مني الأستاذ  
والزميل والصديق الدكتور  
جمال التركي رئيس الشبكة  
تحرير هذا الملف المصم.

ويسعدني أكثر أن أقدم  
لكم بحارة التجربة الصدمية  
الأكبر في حاضرنا العربي  
المتهملة بالأزمة السورية ممثلة  
بخليط من أساطة سوريين  
فطال في بحث ومعالجة  
الصدمة النفسية

أرجوا أن يكون هذا  
الملف نقطة البداية للانطلاق  
مدرسة عربية لصدمة النفسية  
طالما حلم وأسس لها المرحوم  
الدكتور محمد أحمد النابلسي  
وكذلك المرحوم الدكتور  
عدنان حبه الله.

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 "1 شبكة العلوم النفسية العربية" (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعها الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاماً من الضج... 61 عاماً من التواصل "

( التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13 )

(رابط الكتاب)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>